فلسفة الإسلام في التعايش

مع الآخر الديني والثقافي

- مع الآخر الديني
- التوترات الدينية استثناء
- العلاقة مع الآخر الثقافي
- موقف التفاعل المتوازن

obeikandl.com

بالفلسفة الإسلامية في النظرة للآخر الديني، حقق الإسلام "ثورة إصلاحية وإصلاحًا ثوريًّا" تجاوز الاعتراف بالآخر والقبول به والتمكين له، إلى حيث جعل هذا "الآخر في الشريعة" جزءً من "الذات الدينية الواحدة"، وذلك لأول مرة في تاريخ العلاقات بين أبناء الديانات والحضارات.

obeikandl.com

فلسفة الإسلام في التعايش مع الآخر الديني والثقافي

يؤسس القرآن الكريم لفلسفة إسلامية متميزة في رؤية الكون والحياة والعلاقات بين الأحياء. وفي هذه الفلسفة الإسلامية المتميزة معالم رئيسية، يمكن أن نشير إلى عدد منها:

أ- أن الواحدية والأحدية هي فقط للذات الإلهية.[1]

ب- وأن التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف هو سنة إلهية كونية مطردة في سائر عوالم المخلوقات. وأن هذه التعددية هي في إطار وحدة الأصل الذي خلقه الله ﷻ. فالإنسانية التي خلقها الله من نفس واحدة تتنوع إلى شعوب وقبائل وأمم وأجناس وألوان. وكذلك إلى شرائع في إطار الدين الواحد. وإلى مناهج، أي ثقافات وحضارات في إطار المشترك الإنساني الواحد، الذي لا تختلف فيه الثقافات. كما تتنوع إلى عادات وتقاليد وأعراف متمايزة حتى داخل الحضارة الواحدة، بل والثقافة الواحدة.

وهذا التنوع والاختلاف والتمايز يتجاوز كونه "حقًّا" من حقوق الإنسان، إلى حيث هو "سنة" من سنن الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ

---

[1] انظر: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۞ اللهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(الإخلاص:١-٤).

الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾(النساء:١).. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(هود:١١٨-١١٩). وكما يقول المفسرون: "فللاختلاف خلقهم".

فالواحدية والأحدية فقط للحق سبحانه.. والتنوع هو السنة والقانون في كل عوالم المخلوقات.

جـ- وأن هذا التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف له مقاصد عديدة، منها: تحقيق حوافز التسابق على طريق الخيرات بين الفرقاء المتمايزين: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾(المائدة:٤٨). ومنها: فتح أبواب الحرية للاجتهاد والتجديد والإبداع، الذي يستحيل تحقيقه دون تفرد وتمايز واختلاف: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾(البقرة:١٤٨).

د- وأن علاقة الفرقاء المتمايزين والمختلفين والمتعددين يجب أن تظل في إطار الجوامع الموَحِّدة، وعند مستوى التوازن والعدل والوسطية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣). "فالوسط" -بنص الحديث النبوي- هو "العدل" الذي يجب أن يحكم علاقات الفرقاء المختلفين،" (رواه الإمام أحمد).

هـ- فإذا اختلت موازين العدل والوسط بين الفرقاء المختلفين والمتمايزين في الطبقات الاجتماعية أو الشرائع الدينية أو الفلسفات أو الحضارات، فإن الفلسفة الإسلامية تحبذ طريق "التدافع" الذي هو حراك يُعَدّل المواقف والمواقع والاتجاهات، فينتقل بها من مستوى الخلل

والظلم والجور والعدوان إلى مستوى العدل والتوازن والوسط والتعايش والتعارف، مع المحافظة على بقاء التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت:٣٤).

وهذا "التدافع" الذي هو وسط بين تفريط "السكون والموات" وبين إفراط "الصراع"، هو المزكي للتعددية، وللتنافس والتسابق على طريق الخيرات، بينما السكون يفضي إلى الموات للمستضعفين. كما أن الصراع يفضي إلى نفس النتيجة؛ لأن القوي يصرع الضعيف، فينفرد بالساحة، وينهي التعدد والتمايز والاختلاف. فالتدافع هو الذي يُعَدِّل المواقف الظالمة، مع الحفاظ على التعددية وعلى التنافس والتسابق على طريق الخيرات. فهو سبيل للإصلاح في ظل التنوع والتعدد، وليس على أنقاض التنوع والتعدد: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(البقرة:٢٥١).[1]

هذا هو موقع التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف في الرؤية الإسلامية للكون والحياة والعلاقات بين عوالم المخلوقات والأفكار، ودور هذا التنوع في التقدم والإصلاح.

وذلك هو تميز الفلسفة الإسلامية بالوسطية الجامعة عن غيرها من نزعاتِ وفلسفات الدمج القسري للكل في واحد.. أو نزعات وفلسفات الصراع التي تفضى هي الأخرى إلى انفراد طرف واحد -هو الأقوى- بالساحة والامتيازات. فطرَفا الغلو يفضى كل منهما إلى ذات النهاية..

---

[1] انظر: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً﴾(الحج:٤٠).

وبينهما تتميز الوسطية الإسلامية في هذا الميدان..

مع الآخر الديني

وفي دولة النبوة بالمدينة المنورة سنّ رسول الله ﷺ ثلاث سنن جسّدت فلسفة الإسلام في العلاقة بالآخر الديني؛ الكتابي منه والوضعي: اليهود والنصارى، والمجوس ومن ماثلهم.. ولقد صيغت هذه السنن النبوية، المعبرة عن هذه الفلسفة الإسلامية، في وثائق دستورية، طبّقتها دولة النبوة، ورعتها دولة الخلافة الراشدة، وظلت مبادئها مرعية إلى حد كبير عبر تاريخ الحضارة الإسلامية وأوطان عالم الإسلام.

١-مع الآخر اليهودي: وأُولى هذه الوثائق الدستورية هي "الصحيفة، الكتاب"، دستور دولة المدينة المنورة، الذي وضعه رسول الله ﷺ عقب الهجرة، وفور إقامة "الدولة" ليحدد حدود الدولة، ومكونات رعيتها (الأمة)، والحقوق والواجبات لوحدات الرعية، بمن فيهم الآخر الديني (اليهود العرب وحلفاؤهم العبرانيون)، وليحدد كذلك المرجعية الحاكمة للدولة ورعيتها.

وفي هذه الوثيقة الدستورية تحدثت موادها -التي زادت على الخمسين مادة- عن التنوع الديني في إطار الأمة الوليدة والدولة الجديدة، وعن المساواة بين الفرقاء المتنوعين، فقالت عن العلاقة بين المسلمين واليهود، أي عن التنوع الديني في إطار وحدة الأمة: "..ويهودُ أمةٌ مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، وأن بطانة يهود كأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ -"يُهلك"- إلا نفسه وأهل بيته، ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأُسوة مع البرّ المحض من أهل

هذه الصحيفة، غير مظلومين ولا مُتَنَاصَرٍ عليهم، ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم..".[1]

فكانت هذه الوثيقة الدستورية أول "عقد اجتماعي وسياسي وديني" -حقيقي وليس مفترضًا ومتوهما- لا يكتفي بالاعتراف بالآخر، وإنما يجعل الآخر جزءً من الرعية والأمة والدولة -أي جزءً من الذات- له كل الحقوق، وعليه كل الواجبات، وذلك في زمن لم يكن فيه طرف يعترف بالآخر على وجه التعميم والإطلاق.

٢-مع الآخر النصراني: أما الوثيقة الدستورية الثانية، فهي خاصة بالعلاقة مع الآخر النصراني، وضعها رسول الله ﷺ لنصارى نجران -عهدًا لهم ولكل المتدينين بالنصرانية عبر المكان والزمان- وذلك عند أول علاقة بين الدولة الإسلامية وبين المتدينين بالنصرانية. وفي هذا العهد الدستوري كتب رسول الله ﷺ: "لنجران وحاشيتها، وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض جوار الله، وذمة محمد رسول الله ﷺ، على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبِيَعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير.. أَن أحمى جانبهم وأذبّ عنهم وعن كنائسهم وبيَعهم وبيوت صلواتهم ومواضع الرهبان ومواطن السياح، وأن أحرس دينهم وملّتهم أين ما كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصّتي وأهل الإسلام من ملتي؛ لأني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين،

[1] مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، لمحمد حميد الله، القاهرة، ١٩٥٦م، ص:١٥-٢١.

وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم".[١]

فبلغت هذه الوثيقة في الاعتراف بالآخر الديني، والقبول به، والتكريم له، والتمكين لخصوصياته، والاندماج معه، مالم تبلغه وثيقة أخرى عبر تاريخ الإنسانية، مع ميزة كبرى، وهي جعلها لهذا التنوع والاختلاف في إطار وحدة الأمة، تجسيدًا لفلسفة الدين الإسلامي في العلاقة بالآخر، وليس على أنقاض الدين كل دين.

٣-مع الآخر أهل الديانات الوضعية: أما السنة النبوية الثالثة التي قننت للعلاقة بالآخر الديني، فلقد مدّت نطاق الآخر إلى أهل الديانات الوضعية؛ فعاملتهم معاملة أهل الديانات الكتابية. ولقد بدأ تطبيق دولة الخلافة الراشدة لهذه السنة عندما دخل المتدينون بالمجوسية في إطار الرعية الواحدة لدولة الخلافة الراشدة على عهد الراشد الثاني عمر بن الخطاب ﷺ. فلقد عرض عمر ﷺ هذا الواقع الجديد على مجلس الشورى (مجلس السبعين)، وسأل: "كيف أصنع بالمجوس؟" فوثب عبد الرحمن بن عوف ﷺ فقال: "أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: "سُنّوا فيهم سنة أهل الكتاب".[٢]

التوترات الدينية استثناء

منذ القرن الهجري الأول ضمت الدولة الإسلامية أوطانًا وديارًا وأقاليم، كما ضمّت شعوبًا وقبائل وديانات وفلسفات ومذاهب جسدت كل ألوان وأطياف التنوع والاختلاف الذي عرفه الإنسان في ذلك التاريخ.

---

[١] مجموعة الوثائق السياسية، لمحمد حميد الله، ص:١٢٣-١٢٨.

[٢] فتوح البلدان، للبلاذري، القاهرة، ١٩٥٦م، ص:٣٢٧.

ولقد تعاقب على حكم الخلافة الإسلامية، والدول التي تفرعت عنها وورثت سلطانها ألوان من الخلفاء والسلاطين والولاة، منهم الصالح ومنهم الطالح، ومنهم العادل ومنهم الجائر، ومنهم الذي جمع بين المتناقضات.

ولا يتصور عاقل أن تاريخًا بهذا الطول (قرابة خمسة عشر قرنًا) لأمة بهذا التنوع، وعالم بهذا الاتساع، وفي ظل تحديات خارجية شرسة، يمكن أن يخلو من التوترات الدينية بين الفرقاء الذين عاشوا على أرض الإسلام. لكن النظر إلى هذه التوترات الدينية التي تمثل خروجًا عن السنة النبوية التي تقررت منذ دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة يجب أن يكون في حجمها الحقيقي، وفي إطار مقارنتها بما كانت عليه الحضارات الأخرى، كما حدث بين البروتستانت والكاثوليك في الحروب الدينية الأوروبية التي دامت أكثر من قرنين، وأبيد ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا، والحروب بين البيض والسود في أمريكا.. وفوق ذلك ومعه، يجب النظر إلى هذه التوترات الدينية والطائفية في إطار الأسباب الحقيقية التي ولّدت وقائعها وأحداثها.

ولعل شهادة العلماء والباحثين غير المسلمين أن تكون خير شاهد من أهلها على حقيقة حجم هذه التوترات وأسبابها:

فالعالم الإنجليزي الحجة "سير توماس أرنولد" يشهد للحرية الدينية التي قرّرها الإسلام وحضارته، والتي وسعت التنوع والاختلاف، وأتاحت إنقاذ النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية البيزنطية، حتى ليمكن القول:

إن بقاء النصرانية الشرقية هو "هبة الإسلام".[١]

والعالم الألماني الحجة "آدم متز" يتحدث عن دور غير المسلمين في إدارة دواوين الدولة الإسلامية عبر التاريخ الإسلامي، فيقول: "لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام".[٢]

أما الباحث والمؤرخ المسيحي اللبناني "جورج قرم"، فإنه يرجع التوترات الدينية والطائفية -العابرة والمحدودة- التي شهدها التاريخ الإسلامي إلى عوامل ثلاثة، هي:

١- المزاج الشاذ لبعض الحكام الشواذ الذين حكموا بعض البلاد الإسلامية لبعض الوقت والذين اضطهدوا الأقليات كجزء من اضطهادهم العام للرعية كلها.

٢- صلف الوزراء والجباة والقادة غير المسلمين، واستعلاؤهم على جمهور المسلمين، وثراؤهم المستفز، وظلمهم واضطهادهم لعامة الفقراء المسلمين؛ الأمر الذي ولّد ردود أفعال طائفية لم تقف عند الذين ظُلموا من أبناء هذه الأقليات خاصة، وإنما عمت البلوى جماهير الأقليات.

٣- غواية الاستعمار الأجنبي -الصليبي والإنجليزي والفرنسي- لقطاعات من أبناء الأقليات، كي تمالئ الغزاة، وتخون أمتها ووطنها، ونجاح هذه الغوايات الاستعمارية في كثير من الأحيان، الأمر الذي ولّد ردود أفعال عنيفة ضد أبناء هذه الأقليات التي وقعت في شباك الغوايات.[٣]

هذا هو حجم التوترات الدينية في التاريخ الإسلامي.. وتلك هي أسباب

---

[١] الدعوة إلى الإسلام، سير توماس أرنولد، القاهرة، ١٩٧٠، ص:٧٢٩-٧٣٠.

[٢] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، بيروت، ١٩٦٧م، ١/١٠٥.

[٣] تعدد الأديان وأنظمة الحكم، جورج قرم، بيروت، ١٩٧٩م، ص:٢١١-٢٢٤.

هذه التوترات، كما شهد بها المنصفون من العلماء والباحثين غير المسلمين.[١]

العلاقة مع الآخر الثقافي

في الموقف من الثقافات التي تنتشر على النطاق العالمي، وفي إطار الحضارات غير الإسلامية، هناك مواقف ثلاثة، لكل واحد منها أنصار ومحبذون:

وأول هذه المواقف هو موقف المثقف "خالي الشغل"، ذلك الذي يمثل عقله صفحة بيضاء خالية من الموقف والخصوصية والذاتية الحضارية، وتنطبع عليها كل ألوان الوافد والمستورد، حتى لكأن عقله هذا مكتب من مكاتب الاستيراد، التي تعيش بها وعليها طبقة "الكومبرادور" الطفَيلية، التي لا علاقة لها بالإنتاج الوطني والقومي، ولا علاقة لعقولها بالإبداع الفكري والثقافي والحضاري.

وثاني هذه المواقف هو موقف الانغلاق دون الثقافات العالمية جميعها، وتحريم الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى في الحفاظ على لغاتها وآدابها وفنونها وثقافاتها، وفي التطوير لهذه الثقافات، والتجريم لكل ألوان الانفتاح على هذه الثقافات.

وأصحاب هذا الموقف يحلمون بـ"المستحيل - الضار".. فما يريدونه مستحيل التحقيق، لأن بناء أسوار صينية بين الثقافات العالمية لم يتحقق قديمًا، فما بالنا به في عصر ثورة وسائل الاتصال؟!

وهذا المستحيل ضار -على فرض إمكان تحققه- لأن الانغلاق الثقافي

---

[١] انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي (٧٦٦-٨٤٥هـ)؛ عجائب الآثار، للجبرتي (١١٦٧-١٢٣٧هـ).

يؤدي بأصحابه إلى مثل ما يؤدي إليه الإضراب عن الطعام والشراب بجسم الإنسان، حيث يتغذى الجسم على ذاته، فيستهلك هذه الذات، ويصاب بالذبول والضمور والاضمحلال.

وإذا كانت التبعية الثقافية تؤدّي بأصحابها إلى التقليد الذي يذيب التميز، فتضمحل به الذاتية والخصوصية، فإن الانغلاق يقود -هو الآخر- إلى ذات النتيجة البائسة والمأساوية.. فكلا التفريط والإفراط يفضيان إلى مأساة الذبول والاضمحلال للشخصية الوطنية والقومية في الثقافة والحضارة.

موقف التفاعل المتوازن

أما الموقف الثالث من الثقافات العالمية، فهو الوسط العدل الذي يختار طريق "التفاعل" مع الحضارات والثقافات العالمية، من موقع الراشد المستقل، دونما إفراط في الخصوصية يؤدي إلى "الانغلاق" أو تفريط يؤدي إلى "التبعية" والتقليد والذوبان.

وهذا التفاعل مع الثقافات العالمية هو الذي يميّز بين خصوصيتنا الثقافية المتمثلة في منظومة القيم الإسلامية، التي هي معايير القبول والرفض لما لدى الآخرين، وبين ما هو مشترك إنساني عام، سواء أكان هذا المشترك علومًا طبيعية ودقيقة ومحايدة، أو تطبيقات لهذه العلوم في التقنيات التي يتم بها عمران الواقع المادي في المجتمعات الإسلامية، أو كان هذا المشترك الإنساني العام خبرات وتحارب إنسانية في ميادين ترقية الثقافة واللغة وتطعيم ثقافتنا وإثرائها بالقوالب المستحدثة والنافعة في الفضاءات الثقافية الأخرى.

فهذا الموقف الثالث -موقف التفاعل الخلاق بين الثقافات

والحضارات- هو النافع... وهو الوسط العدل بين غلوّ الإفراط والتفريط في الانغلاق والعزلة وفي التبعية والتقليد.

بل إن هذا الموقف الثالث (الوسطي والمتوازن والعادل) يكاد يكون هو القانون العادل الذي حكم العلاقات الصحية والناضجة بين الثقافات والحضارات على مر التاريخ.

فالمسلمون عندما انفتحوا على ثقافة مدرسة الإسكندرية في القرن الهجري الأول، ترجموا علوم الصنعة (تقنيات العلوم الطبيعية والدقيقة والمحايدة) ولم يترجموا ديانات مصر (الوثنية أو النصرانية) ولا الفلسفات الهلينية والغنوصية. وكذلك صنع المسلمون عندما انفتحوا على التراث الروماني، منذ عصر الراشد الثاني عمر بن الخطاب ﷺ، فلقد أخذوا نظم الدواوين، دون أن يأخذوا القانون الروماني. وكذلك كان الحال في التفاعل الإسلامي مع الحضارة الفارسية؛ فلقد أخذ المسلمون تجارب الفرس في التراتيب الإدارية، دون أن يأخذوا فلسفات المجوسية وعقائدها الدينية. وبنفس المعايير كان الانفتاح والتفاعل الإسلامي مع المواريث الهندية؛ إذ أخذ المسلمون فلك الهند وحسابها، دون أن يأخذوا فلسفتها وديانتها. ولقد حكمت ذات المعايير الانفتاح الكبير للحضارة الإسلامية على التراث الإغريقي؛ فأخذوا من الإغريق العلوم الطبيعية والتجريبية، دون أن يأخذوا وثنية الإغريق. وبنفس المعايير كان انفتاح الحضارة الأوروبية -إبان نهضتها- على الحضارة الإسلامية، عندما أخذت العلوم التجريبية والمنهج التجريبي، والخبرات الإسلامية، دون منظومة القيم الإسلامية، والعقائد الإسلامية، وفلسفة العلم عند المسلمين.

إن الخصوصية الثقافية هي الضرورة المحركة للعقل المسلم كي

يبدع ويجدد؛ بينما الانغلاق والتبعية والتقليد تفضي إلى الذبول والذوبان والاضمحلال.

لقد تميزت فلسفة الإسلام في النظر إلى الشرائع والملل والنحل الدينية غير الإسلامية، وفي العلاقة بالمتدينين بتلك الشرائع والملل والنحل بالموقف الوسطي الذي قرر أن دين الله واحد، من آدم إلى محمد ﷺ. إن الشرائع السماوية متعددة بتعدد أمم النبوات والرسالات في إطار وحدة عقائد هذا الدين الإلهي الواحد. فتحققت بهذه الفلسفة الوحدةُ الدينيةُ مع التمايز في الشرائع الدينية أيضًا.

وبهذه الفلسفة الإسلامية في النظرة للآخر الديني حقق الإسلام "ثورة إصلاحية.. وإصلاحًا ثوريًّا" تجاوز الاعتراف بالآخر والقبول به والتمكين له، إلى حيث جعل هذا "الآخر في الشريعة" جزءً من "الذات الدينية الواحدة"، وذلك لأول مرة في تاريخ العلاقات بين أبناء الديانات والحضارات.

ووحده الإسلامُ هو الذي بدأت به مسيرة جعل الآخر جزءً من الذات الدينية؛ فقرر للآخَرين ذات الحقوق وذات الواجبات في الدولة والأمة: "لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم..".

بل لقد جعل الإسلام من الآخر الديني جزءً من أولي الأرحام عندما أقام الأسرة -وليس فقط الأمة- على التنوع الديني. فأصبحت الزوجة الكتابية سكَنًا يسكن إليها المسلم، وموضع محبته ومودته، بينهما ميثاق الفطرة.. حتى لكأنهما ذات واحدة يجمعها لباس واحد: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ

وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾(البقرة:١٨٧).[١]

ولأن فلسفة الإسلام وهي تتطلع إلى المثالي، لا تغفل عن مكنونات "الواقع" تميزت بالعدل الذي لا يضع كل أهل الكتاب في سلّة واحدة وصنف واحد، بينما ميّزت بين فرقائهم بحسب موقف كل فريق من "الكلمة السواء"، التي هي التمايز في الشرائع بإطار وحدة الدين: "الأنبياء أبناء علاّت، دينهم واحد، وأمهاتهم شتّى" (متفق عليه). ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران:٦٤).

فأهل الكتاب ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۞ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾(آل عمران:١١٣-١١٥).

وليس من العدل أبدًا التسوية بين هؤلاء الذين تفيض أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق، وبين الذين دخلوا في لون من الشرك والكفر: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾(المائدة:٧٢).

لكن الإسلام مع هذا التمييز بين فرقاء أهل الكتاب، والعدل في التمييز بين مواقفهم من "الكلمة السواء"، قد جعل حساب كل ذلك إلى الله وحده

[١] انظر: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾(النساء:٢١).

يوم الدين. أما في الدنيا والدولة والتكريم الإلهي لمطلق بني آدم، فقد قرر الإسلام لكل هؤلاء الفرقاء ذات الحقوق وذات الواجبات التي قررها للمسلمين المؤمنين بكل الكتب وكل النبوات والرسالات.. وبنص عبارة رسول الله ﷺ في عهده لنصارى نجران وكل من ينتحل دعوة النصرانية: "فإن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم".

تلك هي مرتكزات التعايش مع الأديان الأخرى، في القرآن الكريم، وفي التطبيق النبوي لهذا القرآن الكريم.

obeikandl.com

الحرية وحقوق الإنسان

- الحرية والتحرير في القرآن الكريم
- الإسلام وتقويض نظم الاسترقاق
- ضوابط الحرية المشروعة
- الإسلام وآفاق الحرية الإنسانية
- الإكراه يثمر نفاقًا لا إيمانًا
- حقوق الإنسان من منظور إسلامي

obeikandi.com

إذا كانت حضارات حديثة ومعاصرة قد جعلت الحرية "حقًّا" من حقوق الإنسان، فإن الإسلام قبل أربعة عشر قرنًا، قد جعلها "فريضة إلهية وواجبًا شرعيًّا وضرورة من الضرورات" لا يحل للإنسان أن يتنازل عنها حتى بالطواعية والاختيار، بل وجعلها بمثابة "الحياة".

obeikandl.com

الحرية وحقوق الإنسان

إن علامة الإسلام وجوهره؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وبالتوحيد يتم تحرير الإنسان من استعباد كل الطواغيت والقوى المادية والموهومة، والظواهر الطبيعية التي طالما استعبدته على مر تاريخ الوثنيات. ولذلك كانت شهادة التوحيد أفعل شهادات التحرير للإنسان؛ ذلك أن إفراد الله بالعبودية والإخلاص له، لا يحرران الإنسان فقط من استعباد الطواغيت، وإنما يمثلان تديّنًا بدينٍ جعل التحرر والحرية مَعْلَمًا من المعالم الرئيسة التي جاء بها كتاب هذا الدين، وركنًا من أركان الرسالة الخاتمة التي بلغها الرسول ﷺ.

الحرية والتحرير في القرآن الكريم

فالقرآن الكريم يذكر الحرية والتحرير ضمن معالم هذه الرسالة المحمدية، وذلك عندما يتحدث عن المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(الأعراف:١٥٧).

فمن مهام هذا الدين ومعالمه؛ وضع الآصار عن الإنسان وتحريره من الأغلال، بل لقد بلغ سمو الإسلام وحرصه على إنسانية البشر إلى أن جعل الحرية فطرةً فطرَ اللهُ الناس عليها، مطلق الناس وليس فقط الذين حررتهم شهادة التوحيد. فهي من معالم تكريم الله ﷻ للإنسان مطلق الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠). وعندما قال الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ كلمته الجامعة: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟! كان "الناس" هنا نصارى غير متدينين بالإسلام، لكنهم من خلق الله الذين استحقوا التكريم بخلق الله ﷻ.

الإسلام وتقويض نظم الاسترقاق

ولم يقف الإسلام عند تحرير الروح وحدها من عبودية الآصار والأغلال التي شدتها إلى الطواغيت -رغم أنها الجوهر ونقطة البداية في التحرير- وإنما شرع في تقويض نُظم الاسترقاق التي جاء فوجدها سائدة في النظم الاجتماعية والاقتصادية بكل الحضارات. فأمام الروافد العديدة والمنابع الكثيرة التي تمد نهر الرقيق -صباح مساء- بالجديد والمزيد من الأرقاء، من مثل الحروب العدوانية، والغارات الدائمة، والفقر المدقع، والعجز عن سداد الدَّيْن، وقطع الطريق... إلخ. فقد شرع الإسلام في إغلاق كل هذه الروافد والمنابع، ولم يبقَ سوى الأَسْر في الحروب المشروعة، وحتى أسرى هذه الحرب المشروعة خيّرهم بين "المن" وبين "الفداء".[1]

ثم استدار -بعد تجفيف منابع الاسترقاق- إلى تركة ذلك النظام،

[1] ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾(محمد:٤).

فوسّع مصابّ نهر الرقيق، فجعل كفارات العديد من الذنوب تحريرَ الأرقاء، ورغّب في هذا التحرير طلبًا للحسنات والعتق من النار.

ولقد جعل الإسلام هذا العتق أو تحرير الرقاب أحد مهام الدولة الإسلامية، ومصرفًا من مصارف الزكاة التي هي ركن من أركان الإسلام الخمسة، بل وتقدم على درب التحرير خطوات أبعد عندما أعطى الرقيق من الحقوق؛ من مثل المساواة بمالكيهم، والمشاركة لهم في الطعام واللباس، وعدم تكليفهم من العمل ما لا يطيقون، بل وإلغاء كلمتي "العبد" والـ"الأَمَة" في لغة الخطاب واختيار كلمتي "الفتى" و"الفتاة" بدلاً منهما،[1] الأمر الذي جعل الاسترقاق "عبئًا اقتصاديًّا" على مُلاك الرقيق بعد أن كان من أهم مصادر "الاستغلال" والإثراء.

بهذا الإصلاح "الجذري والشامل والمتدرج" في ذات الوقت، أنجز الإسلام بالسلم ما لم تنجزه الحروب والثورات في ميدان تحرير الأرقاء؛ فأقام مجتمعًا بلغ فيه بلال الحبشي ﷺ -الذي كان رقيقًا، اشتراه أبو بكر الصديق ثم أعتقه- المكانة التي يقول عنه مثل عمر بن الخطاب: سيدُنا (أي أبو بكر) أعتق سيدَنا (أي بلالاً) (رواه البخاري).

وإذا كانت حضارات حديثة ومعاصرة قد جعلت الحرية "حقًّا" من حقوق الإنسان، فإن الإسلام قبل أربعة عشر قرنًا، قد جعلها "فريضة إلهية وواجبًا شرعيًّا وضرورة من الضرورات" لا يحل للإنسان أن يتنازل عنها حتى بالطواعية والاختيار، بل وجعلها بمثابة "الحياة".

---

[1] وردت في ذلك أحاديث عدة أخرجها البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه وغيرهم، منها: "لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، ولا يقولن المملوك: ربي وربتي، وليقل فتاي وفتاتي، وسيدي وسيدتي، كلكم مملوكون، والرب الله ﷻ".

لقد علّل علماؤنا جعْل الإسلام كفارة "القتل الخطأ" تحرير رقبة، بأن "الرقَّ موتٌ" و"الحريةَ حياةٌ". فلما كان القاتل قد أخرج نفسًا من عداد الأحياء إلى عداد الأموات، فعليه أن يُخرِج نفسًا من عداد الأموات (الأرقاء) إلى عداد الأحياء (الأحرار).[1] نعم، قال علماؤنا بذلك في تفسيرهم لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾(النساء:٩٢).

ضوابط الحرية المشروعة

وإذا كانت كل الحضارات والعقائد والمجتمعات قد اشتركت في وضع ضوابط وآفاق للحرية المشروعة لا تتعداها، فإن هذه الضوابط والآفاق التنظيمية قد تمايزت في هذه الحضارات والمجتمعات بتمايز فلسفاتها الخاصة بمكانة الإنسان في الكون، وطبيعة العلاقة بينه وبين خالق هذا الكون؛ فما يُعَدّ في مجتمعٍ ما وعقيدةٍ بعينها مقوّمًا من مقوماتهما الاجتماعية، وأساسًا من أسس عمرانهما، وركنًا من أركان اجتماعهما البشري، يجعلونه سقفًا للحرية لا تتعداه.

فليس هناك مجتمع يفتح آفاق الحرية وأبوابها "للخيانة الوطنية" أو لتقويض "أسس النظام الاجتماعي" أو "للجريمة" أو "للعدوان"، بل ولا "للعيب" في ذات الحاكم أو "إهانة" قطعة قماش إذا كانت علَم الوطن ورمزه. فالجميع متفقون على أن هناك سقفًا للحرية وآفاقًا يجب أن لا تتعداها؛ حفاظًا على المقومات التي يحفظ قيامها ما هو متاح للجميع من حريات وحرمات.

---

[1] انظر تفسير النسفي "مدراك التنزيل وحقائق التأويل"، ج:١، ص:١٨٩، طبعة القاهرة، سنة ١٣٤٤هـ.

الإسلام وآفاق الحرية الإنسانية

والإسلام مع هذا المبدأ، لكنه يتميز في الفلسفة التي تحدد آفاق الحرية في المجتمع الذي تسود شريعته فيه. والمدخل إلى هذه الفلسفة الإسلامية المتميزة في آفاق الحرية الإنسانية، هو نظرة الإسلام إلى مكانة الإنسان في هذا الكون.

ففي حين ترى الفلسفات المادية والوضعية في الإنسان "سيد الكون"، فتحرّر حريته من ضوابط الشريعة الإلهية وأُطر الحلال والحرام الديني، حتى يستطيع -كما في الديمقراطيات الغربية- أن يحرم الحلال ويحلل الحرام إذا هو أراد! فإن الإسلام يرى الإنسان خليفةً لله ﷻ في عمارة هذه الأرض، له حرية وإرادة وقدرة واستطاعة، لكنها حرية الخليفة والنائب والوكيل، المحكومة ببنود عقد وعهد الاستخلاف.

إن حرية الإنسان -وإن بلغت في الإسلام مرتبة الضرورة والفريضة- محكومة بحقوق الله ﷻ التي هي حدود الشريعة ومعالمها وفلسفتها في التشريع. وهنا -وبهذا الاتساق- تكون العبودية لله حرية وتحريرًا، وتكون الحرية والإنسانية ملتزمة بآفاق الشريعة وحدود الله ونطاق العبودية لله الواحد.

ليست الحرية في الإسلام هي تلك التي تحرّم "العيب في الذات الملكية"، بينما تبيح "العيب في الذات الإلهية"! ولا هي تلك التي تجرّم إهانة "علَم الدولة" في ذات الوقت الذي تسمح فيه بإهانة المقدسات الدينية، ولا هي الحرية التي تقدّس "الوضع البشري" على حين تتحلل من "الوضع والتشريع الإلهي"، ولا التي تعلي من شأن "المصلحة" دون ضبطها بالمعايير "الشرعية" لتكون "مصلحة شرعية معتبرة".

إن سيد الكون والوجود هو خالقه، وهو الذي استخلف الإنسان وفطره على الحرية؛ حرية الخليفة المحكومة بحدود شريعة الاستخلاف.

الإكراه يثمر نفاقًا لا إيمانًا

وإذا كان "الإيمان الديني" -والذي هو تصديق بالقلب يبلغ مرتبة اليقين- لا يمكن أن يأتي ثمرة للإكراه: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦)، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾(هود:٢٨)، لأن الإكراه يثمر "نفاقًا" لا "إيمانًا". فإن الإيمان الديني -في نظر الإسلام- واحد من أهم مقومات الاجتماع البشري، فالحفاظ عليه والحيلولة دون "حرية هدمه" و"إباحة تقويضه"، إلى جانب أنه وفاء بحق الله على الإنسان الذي خلقه ليعبده: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦)، فإنه أيضًا حق من حقوق انتظام الاجتماع البشرية وارتقاء العمران الإنساني.

ولعل في تحلل وانهيار الحضارات والمجتمعات التي جعلت من "المصلحة الدنيوية وحدها"، بل ومن اللذات والشهوات "سقوفًا" وحيدة للحرية، على حين أهملت ضوابط الشرائع الإلهية وحدود الحلال والحرام الديني، ما يزيد الإنسان المسلم استمساكًا بفلسفة الإسلام في الحرية كفريضة إلهية، وواجب شرعي، وضرورة إنسانية يمارسها إنسانٌ مستخلَف لله ﷻ في إطار بنودِ عقد وعهد الاستخلاف.

حقوق الإنسان من منظور إسلامي

وقياسًا على ذلك، تكون الرؤية الإسلامية لكل ما تعارف الناس في الحضارات الأخرى على وضعه في قائمة "حقوق الإنسان":

• الحفاظ على "الحياة" ليس مجرد "حقٍّ"، وإنما هو فريضة إلهية وتكليف شرعي واجب، ولذلك يأثم المفرّط في الحياة حتى ولو تم التفريط بالاختيار؛ انتحارًا كان هذا التفريط أو قعودًا عن الجهاد في سبيل مقومات الحياة.

• و"العلم" ليس مجرد "حقٍّ"، وإنما هو فريضة على كل مسلم ومسلمة، يأثم الذي يختار الجهل عليه، وفي بعض التخصصات تصل فرضيته إلى مرتبة الفريضة الكفائية -الاجتماعية- فتأثم الأمة جمعاء إن هي فرّطت فيها حتى ولو كان التفريط طواعية واختيارًا.

• والمشاركة في "العمل العام" ليست مجرد "حقٍّ"، وإنما هي فريضة تطبيقية لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي فيها جماع تكاليف المشاركة في العمل العام.

ولقد أفردت الحضارة الإسلامية المباحث المستقلة والمطولة في هذه الضرورات؛ من مثل الضرورات الخمس وهي: الحفاظ على الدين، والنفس، والعقل، والنسب والعرض، والمال، وذلك قبل قرون عديدة من المواثيق والإعلانات التي صاغها الآخرون حولها أو حول بعضها كمجرد "حقوق".

لكن الكشف عن هذه الحقيقة يبقى منقوصًا إذا لم ينهض العقل المسلم بصياغة هذه المبادئ والمعالم، في مواثيق مفصلة تقدم الضمانات التي قنّنها الإسلام للإنسان المسلم، ولمطلق الإنسان في سائر ميادين الحياة المعاصرة التي بلغت في التركب والتشعب والتعقيد ما لم تبلغه الحياة الاجتماعية في سالف العصور.

إن العقل المسلم والحركة الإسلامية مُواجهَان بالعديد من التحديات في هذا الميدان.

obeikandl.com

ما هي "الأشباه والنظائر"؟ وما هي "الفروق" بين فلسفة الإسلام وفلسفات الحضارات الأخرى في "حقوق الإنسان"؟ وأين "الوثائق والإعلانات" التي تصوغ موقف الإسلام في هذه القضية بالتفصيل المعاصر والتقنين الحديث، حتى يرى الإنسان المعاصر في هذا الجانب من جوانب الإسلام، السياج الأوفى بحفظ ما له من ضرورات وحاجيات؟

وأخيرًا -وهذا هو الأهم- كيف ومتى سنطبق أحكام الإسلام وفرائضه هذه في الواقع الإسلامي الذي نعيش فيه، وذلك حتى تزول المفارقة الصارخة بين ما ضمنه الإسلام للإنسان من كرامة وتكريم، وبين الواقع الظالم والبائس الذي يعيش فيه هذا الإنسان؟!

obeikandl.com

خَلْق واحد
وتعددية في المخلوقات

- أرض واحدة وعوالم عديدة
- ماء واحد وأصناف متعددة
- السببية والأسباب في الخلق الإلهي
- تعدد الأسباب سنة إلهية
- قِدم العالم وحدوثه

obeikandl.com

إذا كانت "كلمة الله" هي "خَلْقه"، فإن التعددية في هذا الخلق، هي عوالم لا يدري إحصاءها ولا مداها إلا الله ﷻ، بل لو أن أشجار الكون تحولت أغصانها إلى أقلام، وبحار الوجود تحولت إلى مداد لهذه الأقلام، واستدام الإمداد لهذه البحار بالمداد، لما استطاعت هذه الأقلام أن تحصي ما في خلق الله من تعدد وتنوع وتكاثر واختلاف.

obeikandl.com

خَلْق واحد وتعددية في المخلوقات

يتحدث القرآن الكريم عن الكون -بعوالمه المختلفة- باعتباره "خلق الله": ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۞ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(لقمان:١٠-١١)، فهذا الكون، خلقٌ واحدٌ لخالق واحدٍ.

لكن عوالم هذ الخلق الواحد لا يعلم عددها إلا الله ﷻ، بل إن التعددية والتمايز والاختلاف هي عوالم وآيات إلهية تتنوع إليها وتتمايز فيها كل وحدة من وحدات هذه المخلوقات.

فكل صنف من أصناف الأحياء المخلوقة يتنوع ويتعدد إلى أمم وجماعات، فتقوم التعددية في إطار هذا النوع من الأحياء، كما قامت التعددية في إطار الخلق الحي الذي خلقه الله ﷻ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(الأنعام:٣٨). وهذه الأرض التي خلقها الله ﷻ وسوّاها، فيها ألوان وألوان من التعددية والتنوع والتمايز والاختلاف، فهي سبع أراضين: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾(الطلاق:١٢).

obeikandl.com

أرض واحدة وعوالم عديدة

وفي هذه الأرض تنوع وتعدد لا يعلم عدده إلا الله؛ تنوع في الجبال الرواسي والأوتاد التي تحفظها أن تميد، وتنوع في الأنهار -المالحة والعذبة- تنوع بواسطة البرازخ التي تخالف وتمايز مياه كل بحر من البحار ونهر من الأنهار، وتنوع في طبائع قطع الأرض المتجاورات، وتنوع في الثمرات التي تثمرها ذات الأرض الواحدة التي خلقها الله ﷻ... عالم، بل عوالم من التعددية والتنوع والاختلاف، التي لم يحص العلم الإنساني أعدادها في إطار هذه الأرض: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الرعد:٣)، ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(الرعد:٤)، ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾(النحل:١٣). ففي هذه الأرض الواحدة عوالم عديدة من التعدد العجيب. "فيها قطع يجاور بعضها بعضًا، وهي مختلف التربة مع ذلك، بعضها قاحل وبعضها خصب، وإن اتحدت التربة ففيها حدائق مملوءة بكروم العنب، وفيها زرع يحصد ونخيل مثمر، وهي مجتمعة ومتفرقة، ومع أنها تسقى بماء واحد، يختلف طعمها... وعلى سطح هذه الأرض خلق الله ﷻ كثيرًا من أنواع الحيوان والنبات والجماد، وجعل في جوفها كثيرًا من المعادن المختلفة الألوان والأشكال والخواص. وإن في

هذه العجائب لدلائل واضحة على قدرة الله ﷻ لمن له عقل يفكر به".[١]

ومثْل الأرض -في التعددية والتنوع بإطار الوحدة- جاء خلق الله ﷻ للسماء، فهي سبع سموات. وفيها ما لا يعلم عدده إلا الله من عوالم الكواكب والنجوم المجرات: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٩)، ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾(الصافات:٦)، ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(فصلت:١٢).

وبالشمس والقمر تعدد المنازل والمدارات، والمشارق والمغارب، والليل والنهار، بالنسبة لكل موقع على سطح الأرض وفي كل لحظة من اللحظات: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۞ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۞ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(يس:٣٧-٤٠)، ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۞ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۞ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾(الصافات:٤-٦)، وعوالم من التعددية والتنوع والاختلاف في إطار السماء التي خلقها الله ﷻ.

ماء واحد وأصناف متعددة

وهذا الماء الذي أنزله الله من السماء، منه العذب السائغ شرابه، ومنه الملح الأجاج، ومنه البحار والأنهار وما سلكه الله ﷻ في الأرض ليتفجر

---

[١] المنتخب في تفسير القرآن، ص:٣٥٣-٣٨٦. وضع "المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية"، طبعة القاهرة، ١٩٨٦م.

عيونًا وينابيع، مع التنوع الذي يدركه علم الإنسان في الطعوم والخصائص ودرجات الحرارة والمكونات: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾(الزمر:٢١)، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(فاطر:١٢)، ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾(الفرقان:٥٣).

ومن هذا الماء الواحد تخرج عوالم وألوان وأصناف متعددة ومتنوعة ومتمايزة ومختلفة من الثمرات: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾(فاطر:٢٧)، ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(فاطر:٢٨)، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾(طه:٥٣)، ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى﴾(طه:٥٤).. "فالله ﷻ أنزل من السماء ماء فأخرج به ثمرات مختلفًا ألوانها، منها الأحمر والأصفر والحلو والمر والطيب والخبيث، ومن الجبال جبال ذوو طرائق وخطوط بيض وحمر، مختلف بالشدة والضعف، ومن الناس والدواب والإبل والبقر والغنم مختلف ألوانه كذلك في الشكل والحجم واللون.. ثمرات مختلفات الألوان، يروي شجرها ماء واحد، وجبال من ألوان مختلفة يرجع أصلها إلى مادة واحدة.

وهكذا سنة الله واحدة، لأن الأصل واحد والفروع مختلفة متباينة".[1]

وهذه الرياح التي خلقها الله ﷻ هي الأخرى عوالم من التنوع والتميز والتعددية والاختلاف منها ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾(آل عمران:١١٧)؛ أي برد شديد أو سموم حارة، ومنها ﴿رِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾(يونس:٢٢)، وأخرى ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾(يونس:٢٢)؛ أي شديدة الهبوب والتدمير، وقد تأتي ﴿قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾(الإسراء:٦٩)؛ أي عاصفًا شديدًا مهلكًا يقصف الأشجار، وكذلك ﴿الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً﴾(ص:٣٦)؛ أي لينة منقادة، ومنها ﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾(الذاريات:٤١)؛ المهلكة لمن ولما أصابته، وفيها ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾(الحاقة:٦)؛ باردة لها صوت شديدة مزعج.. ومن أصنافها ﴿الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾(الحجر:٢٢)؛ للنبتات حاملة لقاح التذكير إلى الإناث، ومنها ﴿الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾(الروم:٣٧)، بالمطر؛ تلك التي تثير السحاب الحامل للماء ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(الروم:٤٨). عالم من التعددية والتنوع، ذلك الخلق الواحد الذي أبدعه بديع السموات والأرض ﷻ.

السببية والأسباب في الخلق الإلهي

وإذا كانت "كلمة الله" هي "خَلْقه"، فإن التعددية والتنوع في هذا الخلق، هي عوالم لا يدري إحصاءها ولا مداها إلا الله ﷻ، بل لو أن أشجار الكون تحولت أغصانها إلى أقلام، وبحار الوجود تحولت إلى مداد لهذه الأقلام، واستدام الإمداد لهذه البحار بالمداد، لما استطاعت هذه الأقلام

[1] في ظلال القرآن، ج:٥، ص:٢٩٤٢.

أن تحصي ما في خلق الله من تعدد وتنوع وتكاثر واختلاف: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(لقمان:٢٧)، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾(الكهف:١٠٩).

وهذا الخلق الواحد الذي أبدعه الخالق الواحد الأحد، قد أودعه خالقه وبث فيه العديد من الأسباب الفاعلة التي تفعل فعل الضرورات في المسبَّبات الناتجة عن هذه الأسباب، وذلك دون أن يكون هناك -في الرؤية الإسلامية- أيّ تناقض بين كون الخالق سبحانه وتعالى -وهو السبب الأول لكل الأسباب والمسببات- وبين وجود وعمل جميع الأسباب في جميع المسبَّبات.

فنحن -في قضية السببية والأسباب المودعة والمبثوثة في الخلق الإلهي- لا نجد أنفسنا إزاء أي تعارض أو تناقض بين الإيمان بواحدية السبب الأول في الخلق، وبين تعدد الأسباب الفاعلة في المسبَّبات، فهي فلسفة لم يختلف فيها مسلم. حتى حجة الإسلام الغزالي الذي توهم ويتوهم البعض إنكاره لعمل الأسباب في المسبَّبات، فإننا نجده يقول: "إن الأسباب والمسببات يتأدى بعضها إلى بعض في الدنيا بترتيب مسبب الأسباب. والله تعالى غير عاجز عن الإشباع من غير أكل، والإرواء من غير شرب، والإنشاء من غير مصاحبة وقاع، والإنماء من غير رضاع، ولكنه رتب الأسباب والمسببات، ولذلك أمر وحكمة لا يعلمها إلا الله تعالى والراسخون في العلم".[1]

---

[1] المضنون به على غير أهله، ص:٣١٥-٣١٦، ضمن مجموعة "القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي".

تعدد الأسباب سنة إلهية

فمسبب الأسباب قد شاءت حكمته أن تتعدد الأسباب الفاعلة في خلقه، وأن تترتب أفعاله على هذه الأسباب والقوى التي أودعها وبثها في هذا الخلق، جاعلاً ذلك سنة من السنن وقانونًا من القوانين الكونية التي لا تبديل لها ولا تحويل، حتى ليقول ولي الله الدهلوي (١١١٠-١١٧٦هـ) في شرح الآية الكريمة ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾(الأحزاب:٦٢): "اعلم أن بعض أفعال الله يترتب على القوى المودعة في العالم بوجه من وجوه الترتب، شهد بذلك النقل والعقل؛ قال رسول الله ﷺ: "إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب". وسأله عبد الله بن سلام: ما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال: "إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت".[1]

فالخلق واحد، أودع الخالق فيه العديد من الأسباب والقوى الفاعلة في المسببات. فتعددية الأسباب في إطار وحدة الخلق وواحدية خالق الأسباب والسبب الأول فيها معلَم من معالم التصور الإسلامي للكون الذي يعيش فيه الإنسان، له آثاره على قضية التعددية في ثقافة هذا الإنسان. وإذا كان "العالم" واحدًا، فإن هناك تعددية في زاوية الرؤية لهذا العالم باعتبار موقعه من "القِدم" ومن "الحدوث" تفضي إلى تعددية في الحكم على هذا "العالم" الواحد، باعتبار حظه من "القدم" أو "الحدوث"، بل إن هذه

[1] حجة الله البالغة، ج:١، ص:١٧.

التعددية في زاوية الرؤية قد حلت -في الفلسفة الإسلامية- إشكاليات لم تجد لها حلولاً -تبعد الثنائيات المتناقضة- في الفلسفات غير الإسلامية.

قِدم العالم وحدوثه

فالذين قالوا بقِدم العالم نظروا إليه من زاوية شبهه بالقديم وباعتبار الأجرام العلوية التي لا يعتريها الكون والفساد، بينما الذين قالوا بحدوثه قد نظروا إليه من زاوية شبهه بالمحدثات. فالتعددية إنما هي في زاوية الرؤية، والحقيقة أن هذا العالم ليس خالصًا في القِدم ولا خالصًا في الحدوث. وبعبارة أبي سليمان السجستاني (٣٩١هـ) فلقد "عرض الاختلاف بين الناظرين في العالم، أقديم هو أم محدث لأمر لطيف؛ وذلك أن الناظر إلى المركز وجد الشيء الفاسد، فحكم أن الحدوث والقدم قد تعاقبا عليه قدم بالزمان، وحدوث أيضًا بالزمان، فرأى أن الحكم بأنه محدَث واجب. والناظر إلى الأجرام العلوية وجد ما لا يكون ولا يفسد ولا يعتريه دثور، فحكم بأنه قديم. فكان النظران صحيحين من الجهتين المختلفتين".[1]

ولعل عبارة ابن رشد هي الأدق والأبلغ، تلك التي يقول فيها: "وأما مسألة قدم العالَم أو حدوثه، فإن الاختلاف فيها عندي -بين المتكلمين من الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين- يكاد أن يكون راجعًا للاختلاف في التسمية. وذلك أنهم اتفقوا على أن ها هنا ثلاثة أصناف من الموجودات: طرفان، وواسطة بين الطرفين، فاتفقوا في تسمية الطرفين واختلفوا في الواسطة.

فأما الطرف الأول فهو موجود وُجد من شيء غيره وعن شيء؛ أعني عن سبب فاعل، ومن مادة، والزمان متقدم عليه؛ أعني على وجوده.

---

[1] المقابسات، ص:٣٠١-٣٠٢.

وهذه هي حال الأجسام التي يدرك تكونها بالحس، وهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع على تسميتها محدَثة. وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شيء ولا عن شيء، ولا تقدمه زمان، وهذا أيضًا اتفق الجميع على تسميته قديمًا وهو الله تبارك وتعالى.وأما الصنف من الموجودات الذي بين هذين الطرفين، فهو موجود لم يكن من شيء ولا تقدّمه زمان، ولكنه موجود عن شيء؛ أعني عن فاعل. وهذا هو العالَم بأسره، وبَيّنٌ أنه قد أخذ شبهًا من الوجود الكائن الحقيقي ومن الوجود القديم. فمَن غلَّب عليه ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المحدثات، سماه قديمًا، ومَن غلَّب عليه ما فيه من شبه المُحدَث سماه محدثًا، وهو في الحقيقة ليس محدثًا حقيقيًا ولا قديمًا حقيقيًا، فإن المحدث الحقيقي فاسد ضرورة، والقديم الحقيقي ليس له علة".[1]

فالعالم واحد، والتعددية التي صارت في قضية قدمه أو حدوثه، إنما جاءت من تعدد زوايا الرؤية لهذا العالم. وهي تعددية تفسح لهذا المنهاج مكانًا في تصورات المسلم للكون، ومن ثم في ثقافته التي ترى التعددية والتنوع والاختلاف دائمًا وأبدًا في إطار الجامع الموحِّد لِسِمات وقسمات هذا الاختلاف.

[1] فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ص:٤٠-٤٢.

obeikandl.com

سنة التدرج في الإصلاح

- عصر النبوة وسنة التدرج
- التاريخ الإسلامي وسنة التدرج
- مرتكزات أساسية في الدعوة

obeikandl.com

شاء الله ﷻ أن يكون التدرج والتطور سنة مطردة في مسيرة الشرائع السماوية التي جعلها سبحانه "لطفًا" لهداية الإنسان. فمع وحدة الدين عبر حقب وأمم النبوات والرسالات كان تدرج وتطور الشرائع مع واقع هذه الأمم ومع نمو المستوى العقلي لأمم هذه الرسالات.

obeikandl.com

سنة التدرج في الإصلاح

التدرّج سُنّة من سنن الله ﷻ، وقانون من القوانين الكونية التي لا تبديل لها ولا تحويل. هو سنة من سنن الخلق الإلهي للكون والعالم بسماواته وأراضيه ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾(الأعراف:٥٤). فتدرَّج خلقُ الله لها في ستة أيام -من أيامه سبحانه- وهو القادر على أن يقول لها في جزء من اللحظة كن فتكون. والتدرج سنة من سنن الله في خلقه للإنسان الأول آدم عليه السلام. وبعد المراحل الخمسة (التراب فالماء فالطين فالحمأ المسنون فالصلصال) كانت مرحلة النفخ الإلهي في "مادة" هذا الخلق من "روح الله". فكان أن استوى هذا المخلوق "إنسانًا"، هو آدم عليه السلام. ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾(آل عمران:٥٩) ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾(السجدة:٧)، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(الحجر:٢٨-٢٩).

وبسنة التدرج عبر الأطوار والمراحل كان خلق الله وتكوينه لكل مخلوق من ذرية آدم عليه السلام ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ

اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(المؤمنون:١٢-١٤). فكان التدرج سنة كونية مطردة في خلق الله للعالم وللإنسان الأول ولكل إنسان. كذلك شاء الله ﷻ أن يكون التدرج والتطور سنة مطردة في مسيرة الشرائع السماوية التي جعلها سبحانه "لطفًا" لهداية الإنسان. فمع وحدة الدين عبر حقب وأمم النبوات والرسالات كان تدرج وتطور الشرائع مع واقع هذه الأمم ومع نمو المستوى العقلي لأمم هذه الرسالات.

عصر النبوة وسنة التدرج

وحتى في الشريعة الإسلامية كان التدرج سنة مطردة ومرعية. فهذه الشريعة الخاتمة والخالدة قد بدأت -في المرحلة المكية التي استغرقت ثلاثة عشر عامًا- بإعادة صياغة الإنسان والجماعة المؤمنة والجيل الفريد وفق معالمها ومنظومة قيمها، أي بدأت بالدرجة الأولى في سُلّم التغيير الكبير والجذري والشامل والعميق.. تغيير النفس الإنسانية كي تصبح قادرة على تغيير الواقع وفق المنظومة القيمية الإيمانية ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١). وكذلك كان الحال "التدرج" في المرحلة المدنية التي استغرقت عشر سنوات. فامتلاك الجماعة المؤمنة (الأمة) للحضارة وأركانها، لم يجعل "الطفرة" تحل محل "التدرج"، ولا "الثورة" تحل محل "الإصلاح" في استكمال التشريع واكتمال التطبيق لشريعة الإسلام. فمع تدرج الوحي "المنجّم" واكب التشريع والتطبيق للتشريع تطور التغيير المتدرج للإنسان الذي سيقيم كامل الشريعة، وللواقع الذي لابد من تهيئته لتقبل كامل الشريعة.

فنظام المواريث طبّق في السنة الثالثة للهجرة، أي بعد ستة عشر عامًا

من بدء الوحي. والنظام الإسلامي للأسرة من الزواج والطلاق والنفقة وسائر أحكامها اكتمل تشريعه وتطبيقه في السنة السابعة للهجرة، أي عبر عشرين عامًا من بدء الوحي. والقوانين الجنائية تدرج تشريعها وتطبيقها مادة مادة، حتى اكتملت في السنة الثامنة للهجرة، أي عبر واحد وعشرين عامًا من عمر الوحي الخاتم. وتدرجت أحكام الخمر من الذم لها والتحذير منها إلى التحريم القاطع والنهائي لها في السنة الثامنة للهجرة، أي في العام الواحد والعشرين من بدء الوحي. وكان تحريم الربا في السنة التاسعة للهجرة، وذلك بعد أن تخلّق في الواقع الإسلامي للمجتمع الجديد والأمة الوليدة اقتصاد إسلامي بديل حلّ محل الاقتصاد الجاهلي القديم. وعند ذلك أصبح تطبيق الفلسفة الجديدة للنظام اللاربوي ومعاملاته أمرًا ممكنًا.[1]

بل إن هذا التدرج قد كان سنة مرعية ومطردة أيضًا في الشعائر والعبادات -بما فيها الكثير من أركان الإسلام- وليس فقط في أحكام الواقع والمعاملات. فالصلاة بصورتها التامة والحالية اكتملت فريضتها ليلة الإسراء والمعراج في السنة الثانية قبل الهجرة، الحادية عشرة من البعثة. والصوم فرض بالمدينة وكذلك الزكاة والحج إلى بيت الله الحرام.

وإذا كان الله ﷻ قد خلق كل شيء بقدَر وقدَّره تقديرًا، وجعل السنن والقوانين حاكمة لكل عوالم الخلق والوجود والاجتماع الديني والإنساني ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾(الفتح:٢٣)، فلقد شاء سبحانه أن تكون سنة التدرج حاكمة في كل ميادين التغيير.

---

[1] القانون الإسلامي، لأبي الأعلى المودودي، ترجمة: محمد عاصم الحداد، بيروت، ١٩٧٥م، ص:٥١-٥٢.

فالحديث عن "الطفرات" و"الثورات" و"الانقلابات الفجائية" لا يعدو أن يكون حديثًا عن "هبّات" مفارقة لسنن التدرج، تقف عند حدود الغضب والهياج أو الأماني والأحلام. فحتى الجراحات لا تتم إلا بعد تدرج المرض وتطوره ولا تؤتي ثمارها في الشفاء إلا بعد تدرج في العلاج

وإذا كنا قد أشرنا إلى سنن التدرج في الإصلاح الديني، فإن لرسول الله ﷺ حديثًا أراه من جوامع الكلم التي عبرت عن فلسفة السنّة الحاكمة لكل ألوان التغيير الذي يصيب الاجتماع الإنساني عبر التاريخ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها. فالتغيير الذي يصيب الاجتماع الإنساني هو "دورات متواليات" وليس خطا مستقيمًا، صاعدًا نحو الصلاح أو هابطًا نحو الفساد.. هو "دورات" يتعاقب فيها العدل والجور والصلاح والفساد، مع التدرج والتطور في هذا التغيير نحو الصلاح أو الفساد.

وفي هذا الحديث النبوي الشريف الذي جاء نبوءة حاكمة لكل ألوان التغير وعوالمه في الاجتماع الإنساني يقول رسول الله ﷺ: "لا يلبث الجور بعدي إلا قليلا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله حتى يولَد في العدل من لا يعرف غيره" (رواه الإمام أحمد).

فدورات العدل والجور وحقب الصلاح والفساد هي السنة التي تحكم سير الاجتماع الإنساني. والتغيير في هذه الدورات محكوم بسنة التدرج، فبقدر الجور والفساد الذي يظهر وينمو يكون قدر العدل والصلاح الذي يتوارى، وكذلك الحال في الدورات العكسية، حتى لكأننا أمام التدرج في ظاهرتي الشروق والغروب للشمس مثلاً دونما "طفرة" أو "انقلاب

فجائي". بل إن ما يحسبه البعض "طفرة" أو "فجأة" إنما هي لحظة في سلك التدرج وتوالي التطور والتغيير.

التاريخ الإسلامي وسنة التدرج

والذين يفقهون حقيقة التغيرات التي أصابت الاجتماع الإسلامي بعد عصر النبوة، سواء منها التغيرات السلبية أو الإيجابية، والفساد الطارئ منها أو الإصلاح الذي غالَب الفسادَ وتدافع معه سيجدون المصداق والتصديق لهذه السنة -سنة التدرج في التغيير- التي تحدث عنها هذا الحديث الشريف لرسول الله ﷺ. فالتغيرات التي أصابت نموذج العصر النبوي والعصر الراشدي، والتي جاءت من وافد مواريث البلاد المفتوحة وثقافات الشعوب التي دخلت في إطار الرعية والأمة بأسرع مما غيرت نفوسها قيم الإسلام، والتي جاءت أيضًا من النفوس التي تغيرت عندما ابتعدت عن وهج النور الرسالي للعهد النبوي.. هذه التغيرات التي أصابت قيم ونظم الشورى والعدل الاجتماعي أكثر من سواها وقبل سواها لم تحدث فجأة ولا طفرة، وإنما حكمتها سنة التدرج في الاتجاه نحو الجور والظلم والفساد.

وكذلك الحال مع التغيرات التي جسدتها حقبة الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبد العزيز ﷺ والتي أحلّت العدل محل الجور، والصلاح محل الفساد، وردت المظالم إلى أصحابها، والتي مثلت ملحمة من ملاحم التجديد والتغيير العادل في الاجتماع الإسلامي. هذه التغيرات العادلة والصالحة لم تتم فجأة ولا طفرة، وإنما تدرجت عندما بدأها الخليفة بنفسه فزوجِه فأمراءِ بني أمية وصولاً إلى كل الذين اغتصبوا ما

ليس لهم من مال الأمة وبيت مال المسلمين.

ولقد عبر عمر بن عبد العزيز عن تلك التغييرات التي تدرجت بالاجتماع الإسلامي نحو الجور والمظالم والتي ورثها الخليفة عن الذين سبقوه من خلفاء بن أمية، عبّر عنها الخليفة العادل عندما وصف الواقع الاجتماعي في ميدان الثروات والأموال، والتغييرات المتدرجة التي نقلته من العدل إلى الجور، فقال: "إن الله تبارك وتعالى بعث محمدًا ﷺ رحمة -لم يبعثه عذابًا- إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده فقبضه إليه، وترك للناس نهرًا شربهم فيه سواء. ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله. ثم ولي عمر فعمل على عمل صاحبه. فلما ولي عثمان اشتق من النهر نهرًا. ثم ولي معاوية فشق منه الأنهار. ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان حتى أفضى الأمر إليّ وقد يبس النهر الأعظم. ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم كما كان عليه".[١]

وكما تمت التغييرات السلبية من العدل إلى الجور بالتدرج، بدأ عمر بن عبد العزيز ملحمة التغيير من الجور والظلم إلى العدل والصلاح بالتدرج أيضًا، فبدأ بنفسه عندما جعلها القدوة الصالحة والعادلة، وعندما رد جميع المظالم التي ورثها عن أسلافه إلى بيت مال المسلمين وقال وهو يرد "إقطاع فَدَك": "إن أهلي أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذه ولا لهم أن يعطونيه".[٢]

لقد جعل عمر بن عبد العزيز من عامَي خلافته سلسلة متدرجة

---

[١] كتاب الأغاني، للأصفهاني، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الشعب، القاهرة، ٩/٣٣٧٥، ٣٣٧٦.

[٢] فتوح البلدان، للبلاذري القاهرة، ١٣١٩هـ، ص:٢٩؛ الكامل في التاريخ، لابن الأثير، القاهرة، ١٣٠٣هـ، ص:٢٤.

ومتصلة من "رد المظالم" انتقلت بالاجتماع الإسلامي من الجور إلى العدل ومن الفساد إلى الصلاح حتى لقد قالوا: "إنه ما زال يرد المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات".[١] كما عبر عن وعيه بضرورة التدرج في هذا التغيير الإصلاحي رغم شوقه للعدل وحماسه الشديد للإصلاح واستعداده لأن يبذل روحه في سبيل هذا الإصلاح. فمع قوله: "لو كان كل بدعة يميتها الله على يديّ وكل سُنّة ينعشها الله على يديّ ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في الله يسيرًا".[٢] إلا أن حماسه للإصلاح واستعداده للفداء والاستشهاد في سبيله لم يدفعه إلى محاولة إتمامه فجأة وطفرة، وإنما سلك إليه سبيل التدرج ودافع عن هذا المنهاج في التغيير في حواره مع ابنه عبد الملك الذي كان يتعجل التغيير والإصلاح فقال لأبيه: "يا أبت، ما لك لا تنفذ في الأمور؟! فوالله لا أبالي في الحق لو غلت بي وبك القدور!"، فرد عليه عمر بن عبد العزيز، بحكمة رجل الدولة وخبير الإصلاح والفقيه في سنة التغيير التدريجي قائلاً: "لا تعجل يا بني! فإن الله تعالى ذم الخمر في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدَعوه وتكونَ فتنة".[٣]

فلقد كان هذا الراشد العادل واعيًا بسنة الله في التدرج بالإصلاح والتغيير العادل وعارفًا بضرورات التعايش مؤقتًا مع مقادير من الجور والظلم والفساد حتى يحين الحين فيحل بالتغيير التدريجي محلها بدائل

---

[١] كتاب الطبقات، لابن سعد، دار التحرير، القاهرة، ٢٥١/٥.

[٢] مر بن عبد العزيز: ضمير الأمة وخامس الراشـــدين، د. محمد عمارة، دار الوحدة، بيروت، ١٩٨٥م، ص:٢٢٦.

[٣] العقد الفريد، لابن عبد ربه، القاهرة، ١٩٢٨م، ٤٠/٤.

العدل والإصلاح، بل لقد تحدث صراحة عن هذه الحقيقة من حقائق سنة التغيير، فقال: "إني لأجمع أن أخرج للمسلمين أمرًا من العدل فأخاف ألا تحتمله قلوبهم، فأخرج معه طمعًا من طمع الدنيا، فإن نفرت القلوب من هذا سكنت إلى هذا".[1] فهو هنا يتجاوز هذا المستوى إلى الحديث عن مستوى آخر، وهو "تغليف" العدل بشيء من "طمع الدنيا" كي تتقبله النفوس التي "تغلفت" بقيم الاجتماع الفاسد والجائر الذي طرأ على حياة الناس.

وتلك -لعمري- عبقرية في فقه التدرج بالتغيير جسدتها تجربة الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبد العزيز، وعبّرت عنها كلماته الراشدة الحكيمة في فلسفة هذا المنهاج، وجسدتها تجربته العملية التي لا زالت مضيئة في تاريخ الإصلاح الإسلامي، تستحث خطا المصلحين على هذا الطريق.

مرتكزات أساسية في الدعوة

تلك هي سنة التدرج كما تجلت في السنن الإلهية الكونية في خلق العالم وخلق الإنسان، والسنن الإلهية التاريخية في الوحي بالشرائع السماوية الهادية للإنسان، والتطبيقات النبوية لسنة التدرج هذه في الاجتماع الإسلامي بالدولة الإسلامية الأولى، والإصلاح الإسلامي الراشد كما تمثل في تجربة الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبد العزيز ﷺ.

إن إعمال هذه السنة الإلهية الكونية في ميدان الإصلاح والتغيير للواقع الإسلامي الراهن الذي أفسد التغريب الكثير من نواحي فكره وثقافته وإعلامه ومنظومة قيمه لا بد وأن يعني سلوك طريق التدرج في هذا التغيير المنشود. فبقدر ما تتكون الكتيبة التي تبدع البدائل الإسلامية المحكومة

---

[1] المصدر السابق، ٢/٢٣٢.

بالقيم الإسلامية في الثقافة والإعلام، وبقدر ما تطل هذه البدائل الإسلامية على الواقع المعيش، بقدر ما تكون بدايات التغيير للواقع الاجتماعي للثقافة والإعلام وتوجه هذا الواقع نحو الانضباط بمنظومة القيم الإسلامية. وبقدر التغيرات الجزئية والتدريجية التي يحدثها الإبداع الثقافي والإعلامي الإسلامي في الواقع الاجتماعي بقدر ما تتزايد المساحات المحكومة بالقيم الإسلامية في الإبداع الفكري والثقافي والمادة الإعلامية.

وعلينا أن ندرك في صراحة ووضوح أن سنة التدرج هذه إنما تعني مصاحبة الصلاح الإسلامي الجديد حينا من الدهر لكثير أو قليل من الفساد التغريبي الوافد والموروث. وأن نتذكر جيدًا ودائمًا منهاج الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبد العزيز في التدرج الإصلاحي والإصلاح المتدرج الذي لم يقف فقط عند التعايش مؤقتًا مع مقادير من الجور الموروث، وإنما سلك سبيل "تغليف" العدل ببعض طمع الشهوات في زينة الحياة الدنيا وصولاً إلى إحلال العدل الخالص محل الجور والطمع والشهوات.

تلك هي سنة التدرج، وهذا هو قانونها الحاكم في كل عوالم الخلق والإصلاح والتغيير، وذلك هو منهاجها في الخروج بأمتنا من واقعها الفكري والثقافي والإعلامي الراهن إلى حيث الإصلاح الإسلامي المنشود، مع ضرورة:

• صدق النية في الإصلاح الكامل قدر الطاقات والإمكانات وليس مجرد "الترقيع" والاكتفاء بسياسة مجاورة الصلاح للفساد والتعايش بينهما بدعوى وضع النماذج المختلفة أمام الأذواق المختلفة. فإصلاح الأذواق هو هدف من الأهداف الرئيسية للإصلاح. وعلينا أن نميز بين صدق النوايا في التدرج الإصلاحي وبين النوايا الكاذبة التي تتحدث عن "التدرج" بينما

يضع أصحابها النموذج الإسلامي في "الأدراج". فبالنية الصالحة وبالعزم الصادق وبالتخطيط الراشد والتنفيذ الواعي وفق سنة التدرج تتحقق آمال المصلحين في الإصلاح.

• وعدم الاكتفاء بالنوايا الصادقة في الإصلاح الكامل، وإنما العمل المتواصل على تقديم النماذج الثقافية والإعلامية الصالحة (تقديم المثال الإسلامي)، وتنمية مساحة هذا "المثال" باستمرار ليتوارى مع نموه النموذجُ الفاسد والسلبي في الثقافة والإعلام.

• وتقدير الضرورات بقدرها. وذلك حتى لا تنفلت معايير الضرورات في التعايش مع نماذج من الثقافة السلبية. والحرص على أن تكون هناك موازنات بين السيئ والأسوأ والأقل سوءًا في المادة التي يتم التعايش معها مؤقتًا.

• وكما يجب إعمال قاعدة "سد الذرائع" إلى الأسوأ فإن بالإمكان إعمال قاعدة "فتح الذرائع" إلى الأقل سوءًا إذا أفضى التعايش المؤقت معه إلى الصلاح الأكثر والأعم.

• مع الحرص على أن تكون هناك منابر ثقافية وإعلامية خالصة الإسلامية تمثل مراكز للتوجيه والتعريف بالنموذج الإسلامي ودائمة الإشعاع على سائر الساحة الثقافية والفضاء الإعلامي. فضرب الأمثال وانعطاف قطاعات واسعة من الجماهير نحو هذه النماذج هو من أفعل الوسائل في تنمية الإصلاح بميادين الثقافة والإعلام.

obeikandl.com

المسلم والجمال

- الدين ومنبع الإبداع الجمالي
- الجمال المسَّخر للإنسان
- النظر في الجمال هو امتثال لأوامر الله
- الجمال المؤدي إلى الكمال
- الفطرة تمثِّل التجمّل والتزين
- الزينة التي يطلبها الإسلام
- الاستشعار بآيات الجمال
- الاستمتاع بجماليات الحياة

obeikandl.com

إن الجمال والزينة هي آيات الله، أبدعها وبثها في هذا الكون، وأمر الإنسان أن ينظر فيها، فالنظر في هذا الجمال، والاستقبال لآيات الزينة، وفتح قنوات الإحساس الإنساني على صنع الله ﷻ هو امتثال لأمره.

obeikandl.com

المسلم والجمال

إذا كانت "الحضارة" هي جماع إبداع الأمة في عالمي "الفكر" و"الأشياء"، أي في "الثقافة" التي تهذّب الإنسان وترتقي به، وفي "التمدن" الذي يجسد ثمرات الفكر -في التطبيق والتقنية- أشياء يستمتع بها الإنسان المتحضر.. إذا كانت هذه هي "الحضارة"، فإنها كإبداع بشري في المنظور الإسلامي وفي التجربة الإسلامية، وثيقة الصلة بدين الإسلام كوضع إلهي نزل به الوحي على قلب رسول الله ﷺ.

ففي التجربة الحضارية الإسلامية، كان "الدين" هو الطاقة التي أثمرت -ضمن ثمراتها؛ توحيد الأمة وقيام الدولة والإبداع في كل ميادين العلوم والفنون والآداب- شرعية وعقلية وتجريبية، كما كان الدافع للتفتح على المواريث القديمة والحديثة للحضارة الأخرى، وإحيائها وغربلتها وعرضها على معايير الإسلام، واستلهام المتسق منها مع هذه المعايير، لتصبح جزءًا من نسيج هذه الحضارة الإسلامية التي وإن كانت إبداعًا بشريًّا، إلا أنها قد اصطبغت بصبغة الإسلام (الدين)، كما كانت ثمرة للطاقة التي مثلها وأحدثها عندما تجسد في واقع المسلمين. تلك هي العروة الوثقى بين دين الإسلام وبين حضارته، بما فيها من إبداع شمل مختلف الميادين؛ الشرعية، والعقلية، والتجريبية، والجمالية.

obeikandl.com

الدين ومنبع الإبداع الجمالي

إننا لو تأملنا في مكان "الهجرة" في دعوة الإسلام ودولته وأمته، لرأيناها أكثر وأكبر من إنجاز لإنقاذ الدعوة من حصار "الشرك المكي"، لأن الهجرة في حياة هذه الدعوة، لم تقف عند الهجرة من مكة إلى المدينة -ومن قبلها الحبشة- وإنما كانت أيضًا، هجرة من "البداوة" إلى "الحضارة"، من "البادية" إلى "الحاضرة"، من حياة "الأعراب" التي تغلب عليها الغلظة ويسود فيها الجفاء، إلى حياة "العرب" الذين استقروا في "القرى"، فغدا بإمكانهم أن يقيموا "مدينة" و"حضارة" في هذه "القرى".. كانت إنجازًا حضاريًا، ينتقل بالجماعة البشرية من طور ترحال البداوة الذي يستحيل معه قيام "التراكم" في الإبداع الثقافي والتمدّني، إلى طور الاستقرار والحضور في "القرى" الحاضرة، الأمر الذي يتيح لإبداعات الإنسان أن "تتراكم"، فتعلو بناءًا حضاريًّا مناسبًا للجهد الإبداعي المبذول فيه. تلك هي "المكانة الحضارية" للهجرة في حياة دعوة الإسلام في عصر صدر الإسلام، وتلك هي بدايات خيوط العروة الوثقى بين الإسلام "الدين"؛ الوضع الإلهي، وبين الحضارة الإسلامية؛ الإبداع الإسلامي لأمة الإسلام.

وفي ضوء هذه "الحقيقة الحضارية" نفهم اصطفاء الله ﷻ "مكة" أم "القرى" وحاضرة الحواضر، مهبطًا للوحي بالدين الجديد، ونفهم مغزى كون "يثرب" المدينة وهي ثانية القرى والحواضر، هي دار الهجرة وعاصمة الدولة ومنارة الدعوة، بل نفهم سر استمساك القرى والحواضر الثلاث "المدينة" و"مكة" و"الطائف"، بالإسلام يوم ارتدّت عنه -أو عن وحدة دولته- البوادي بمن فيها من الأعراب، عندما زلزلت وفاة الرسول ﷺ

قلوب هؤلاء البدو الأعراب.. نفهم جميع ذلك في ضوء العلاقة العضوية بين هذا الدين وبين الإبداع الحضاري للإنسان الذي تديّن بهذا الدين.

بل ونفهم أن هذه العلاقة بين "الدين" وبين "الحضارة" -ومن ثم فـ"الحضارة" ليست خصيصة إسلامية- إنما هي سنة من سنن الله في كل الشرائع والرسالات. فكما اصطفى الله ﷻ حاضرة مكة، لتبدأ منها الدعوة قائلاً لرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(الأنعام:٩٢) أنبأنا في قرآنه الكريم، أن هذا الاصطفاء إنما كان اطرادًا لسنة إلهية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾(القصص:٥٩). فأمّ القرى وحاضرة الحواضر، كانت دائمًا هي موطن الرسل والرسالات، ذلك للعلاقة العضوية بين "الدين" و"الحضارة" على امتداد تارخ الإسلام.

تلك هي بدايات الخيوط بين الإسلام (الدين) وبين الحضارة، وهي بدايات لا ترشحه كي يوحي بالتجهم إزاءها، ولا بمخاصمة إبداعاتها الجمالية بحال من الأحوال.

الجمال المسخَّر للإنسان

إن "الجمال" الذي يظن بعض من الناس مخاصمة الإسلام إياه، هو -إذا نحن تأملناه- بعض من آيات الله ﷻ التي أبدعها في هذا الكون وأودعها فيه، إنه بعض من صنع الله وإبداعه سبحانه، سوّاه وسخّره للإنسان، طالبًا من الإنسان أن ينظر فيه ويستجلي أسراره ويستقبل تأثيراته ويستمتع بمتاعه ويعتبر بعبرته: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ

دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنعام:٩٩).

وأينما يمّم الإنسان بصره أو بصيرته أو عقله أو قلبه، فإنه واجد آيات الله التي خلقها "زينة" للوجود ودعاه إلى النظر فيها: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۞ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾(الصافات:٦-٧).

فهذه "الزينة" التي هي آيات إبداع الله ﷻ هي "زينة-جمال"، يدعو الله الإنسان إلى النظر فيها، بل وكأنه يقول لنا، إن خلقها ليس "للحفظ" فقط ولا "للمنفعة" وحدها، وإنما "للزينة" التي أبدعها الله لينظر فيها الإنسان ويستمتع بما فيها من جمال. ومثال ذلك حديث القرآن الكريم عن آيات خلق الله التي أبدعها لنا في صورة "الحيوان" المسخّر للإنسان، فليست "المنفعة" المادية وحدها هي الغاية من هذا الخلق والتسخير، وإنما "الجمال" و"الزينة" أيضًا، غايات يتغياها الإنسان في هذا الخلق الذي خلقه الله: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۞ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(النحل:٥-٨).[1]

---

[1] وفي الحديث الشريف عن الخيل: "الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة وهي لرجل أجر، ولرجال ستر وجمال، وعلى رجل وزر، فأما الذي هي له أجر فرجل يتخذها -يعدها- في سبيل الله وأما التي هي له ستر وجمال فرجل يتخذها تكريمًا وتجملاً ولا ينسى حق بطونها وظهورها وعسرها ويسرها. أما الذي هي عليه وزر فرجل يتخذها بذخًا وأشرًا ورياء وبطرًا" (رواه مسلم والإمام أحمد).

النظر في الجمال هو امتثال لأوامر الله

إن هذا الجمال وتلك الزينة هي آيات الله، أبدعها وبثها في هذا الكون، وأمر الإنسان أن ينظر فيها، فالنظر في هذا الجمال، والاستقبال لآيات الزينة، وفتح قنوات الإحساس الإنساني على صنع الله، هو امتثال لأمر الله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾(ق:٦). وهذا النظر في هذه الآية وغيرها من الآيات، هو سبيل من سبل الاستدلال على وجود الله ﷻ وعلى كمال قدرته وبديع صنعته. وما تعطيل النظر في آيات الجمال، إلا تعطيل للدليل على وجود الصانع المبدع لهذه الآيات.

فإن تنمية الإحساس الجمالي لدى الإنسان المؤمن، هو تنمية للملَكات والطاقات التي أنعم بها عليه الله ﷻ، وإن في استخدام هذه الملَكات، سبلا للاستمتاع بما خلق الله ﷻ في هذا الكون من آيات الزينة والجمال، وصدق رسول الله ﷺ عندما قال:"إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده" (رواه الترميذي).

الجمال المؤدي إلى الكمال

إذن، كان المسلم -بحكم إيمانه وإسلامه- مدعوًّا إلى التخلّق بأخلاق الله ليكن ربانيًّا، ومطلوب منه أن يسعى -قدر الطاقة ومع ملاحظة فوارق المطلق عن النسبي- كي يتحلى بمعاني أسماء الله الحسنى. فإن رسول الله ﷺ يعلّمنا أن "الجميل" هو من أسماء الله فيقول: "إن الله جميل يحب الجمال" (رواه مسلم). فالمسلم إذن، مدعو إلى الاتصال بالجمال الذي هو البهاء والحسن في الفعل وفي الخلُق، وإلى تنمية إحساسه بالجمال الذي

أودعه الله في الكون؛ جمال الصور وجمال المعاني على حد سواء،[١] وفي ذلك "كمال" للإنسان و"سعادة" له أيضًا. يقول الإمام الغزالي: "فإن كمال العبد وسعادته في التخلق بأخلاق الله تعالى، والتحلي بمعاني صفاته وأسمائه، بقدر ما يتصور في حقه، ليقرب بها من الحق قربًا بالصفة لا بالمكان، لأن استعظام الصفة واستشرافها يتبعه شوق إلى تلك الصفة وعشق لذلك الحلال والجمال، وحرص على التحلي بذلك الوصف إن كان ذلك ممكنًا، أو يبعث الشوق إلى القدر منه لا محالة. وبذلك يصير العبد ربانيًا، أي قريبًا من الرب تعالى".[٢]

الفطرة تمثّل التجمّل والتزين

ولأن هذا هو موقف المنهج الإسلامي من آيات الجمال والزينة المبثوثة في الكون من صفات الحسن والبهاء المتاحة للإنسان في هذه الحياة، كانت دعوة القرآن الكريم الناسَ إلى اتخاذ الزينة عند كل مسجد، أي إلى إقامة التلازم وعقد القران بين التزين وبين دعاء الله والمثول بين يديه، فكلاهما (التزيين والصلاة) شكر لله ﷻ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۞ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(الأعراف:٣١-٣٢). نلحظ أن هذه الآيات تدعو الإنسان وليس المسلمين وحدهم، وذلك تنبيهًا على أن هذا هو مقتضى الفطرة التي

---

[١] انظر تعريف "الجمال" في "لسان العرب"، لابن منظور.

[٢] المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ص:٢٠-٢١.

فطر الله الناس عليها؛ طلب الزينة والجمال، وتصحيحًا للانحراف الذي جعل العبادة رهبانية تدير الظهر لصفات الحسن ومظاهر الجمال في هذه الحياة. إنه المنهج الإسلامي الذي يعيد الإنسان في هذه القضية وسواها، إلى "فطرته" والتي يمثل التجمل والتزين ملمحًا أصيلاً من ملامحها، وفي حديث عائشة رضى الله عنها، يقول رسول الله ﷺ: "عشر من الفطرة: قص الشارب، وقص الأظافر، وغسل البراجم، وإعفاء اللحية، والسواك والاستنشاق، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء[1]" (رواه النسائي).

وإذن، كان "المسجد" في العرف الإسلامي، هو مطلق مكان السجود، ولذلك كانت الأرض كلها مسجدًا لأبناء الإسلام. فإن اتخاذ الزينة هو فريضة إسلامية في الأوقات الخمسة التي يمثُل فيها المسلم -يوميًّا- بين يدي مولاه، أي إنها فريضة إسلامية في كل زمان -تقريبًا- وفي أي مكان.

وهذه الفريضة يتأكد التنبيه عليها في أيام وأماكن الاجتماع، كالجمع والأعياد.. وفي حديث رسول الله ﷺ: "من اغتسل -أو تطهر- فأحسن الطهور، ولبس من أحسن ثيابه، ومس ما كتب الله له من طيب أو دهن أهله ثم أتى الجمعة، فلم يلغ ولم يفرق بين اثنين، غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى" (رواه ابن ماجة).

الزينة التي يطلبها الإسلام

ولا يحسبن أحد أن "الزينة" التي يطلبها الإسلام ويأمر بها، مقصورة على الثياب الحسنة والطيب وحسن التجمل -فقط- عند المثول بين يدي الله في الصلاة، ذلك أن "الزينة" إذا كانت اسمًا جامعًا لكل شيء يُتزين

[1] انتقاص الماء: من معانيه؛ الاستنجاء.

به، فإن مصادر طلبِها ومواطن الإحساس بها، مبثوثة في كل آيات الجمال التي خلقها الله، وأبدعها وأودعها في سائر أنحاء هذا الوجود.

ولقد ميز الإسلام ما بين طلب الجمال والاستمتاع به عندما يحكمه الاقتصاد والاعتدال وعندما يكون شكرًا لأنعم واهب هذا الجمال، وبين "الكبر" الذي نهى عنه الإسلام وتوعد مقترفيه. فعندما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي يرويه ابن مسعود ﷺ: "لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر"، عند ذلك قال رجل: يا رسول الله إني ليعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً ورأسي دهينًا وشراك نعلي جيدًا -وذكر أشياء حتى ذكر علاقة سوطه- أفمن الكبْر ذلك يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: "لا، ذلك الجمال، إن الله جميل يحب الجمال، ولكن الكبْر من سفه الحق وازدرى الناس" (رواه مسلم).

ولقد أباح الإسلام للمرأة أن "تتجمل للخُطّاب" إظهارًا لنعمة الجمال وطلبًا للزواج. وفي حديث الصحابية الجليلة سبيعة بنت الحارث الأسلمية رضي الله عنها، عندما توفي عنها زوجها سعد بن خولة، ووضعت حملها منه وبرئت من نفاسها "تجمّلت للخُطّاب"، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك -من بني عبد الدار- فقال لها: "مالي أراك متجمّلة، لعلك ترجين النكاح؟! إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر. فذهبت سبيعة إلى رسول الله ﷺ وسألت عن ذلك -عن العدّة- وليس عن "التجمل للخُطّاب" فلم يكن ذلك موضع خلاف. قالت: فأفتاني رسول الله ﷺ بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزويج إن بدا لي" (رواه مسلم).

ووجدنا القرآن الكريم يتحدث عن زينة الأرض وزخرفها كمهمّتين من مهام خلافة الإنسان عن الله في عمرانها، لن تنتهي هذه الخلافة بطيّ

صفحة هذه الحياة الدنيا، إلا إذا بلغ الإنسان الشأو في هذا السبيل: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(يونس:٢٤).

الاستشعار بآيات الجمال

ولقد كان منهج النبوة الذي تجسد في سلوك الرسول ﷺ في خاصة نفسه، ومع أهله، وفي تشريعه للناس.. كان هذا المنهج بصدد التربية الجمالية والسلوك الجمالي، البيان العملي والممارسة التطبيقية للبلاغ القرآني الذي شرع الله فيه منهج الإسلام في هذا الميدان. فهذا الرسول ﷺ الذي جاء رحمة للعالمين، كان النموزج الأرقى للإنسان الذي يستشعر كل آيات الجمال في خلق الله، ويلفت النظر بهذا السلوك الجمالي، ليغدو سنة متبعة في مذهب الإسلام وحضارة المسلمين.

لم يكن الرسول ﷺ مترفًا ولا "مستغنيًا"، ولكن الله قد أغناه عن الحاجة بعد أن كان فقيرًا عائلاً: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾(الضحى:٨)، لم يكن "الراهب" الذي يقيم الخصام بين مملكة الأرض ومملكة السماء، ولا "الناسك نسكًا أعجميًا" الذي يدير ظهره للدنيا وطيباتها، إنما كان يقبل الهدية، ويهدي إلى الناس، وكان يتصدق دون أن تتطلّع نفسه أو تمتد يده إلى شيء من الصدقات.. كان له من المال ما يكفيه وأهله، كإمام للدولة، وبمقاييس بساطة تلك الدولة ودرجتها في ذلك الزمان وذلك المكان.. كان المال في يده، ولكنه لم يستول على قلبه في يوم من الأيام.

ونحن إذا شئنا أن نتلمس في سيرته -في خاصة نفسه- نماذج شاهدة على رقيّه وارتقائه في السلوك الجمالي والإحساس بالجمال، إننا واجدون الكثير..

يروي ابن عباس ﷺ فيقول: كان رسول الله ﷺ يتفاءل ولا يتطير، ويعجبه الاسم الحسن (رواه الإمام أحمد). والذين يتأملون هذا السلوك -في ضوء قضيتنا- يدركون أن التفاؤل إنما هو ثمرة لرؤية إيجابيات الواقع وجماليات المحيط، وهو ضد التشاؤم الذي لا يرى صاحبه سوى القبح والسلبيات، وأيضًا هو غير السذاجة التي لا يبصر صاحبها لا الإيجابيات ولا السلبيات. فالتفاؤل موقف إيجابي من جماليات الحياة وإيجبيات المحيط.

"ولا يتطير"، لأن المتطير هو الذي لا يرى من الأشياء إلا جانب القبح والشؤم، على حين أن في هذه الأشياء -كل الأشياء- من وجوه الخير والجمال ما يطرد التطير والتشاؤم عن الذين يبصرون هذا الخير وهذا الجمال. "ويعجبه الاسم الحسن"، أي إنه ﷺ قد بلغ في استشعار آثار الجمال إلى الحد الذي جعله يلمحها حتى في الأسماء. فهو يدرك أثر "العنوان" في الدلالة والإيماء إلى "المضمون والموضوع".

ثم أيّ رقي في الجمال والتجمل يبلغ ذلك الذي تحدّث عنه خادمه أنس بن مالك ﷺ، عندما وصف هذا الجانب من حياته فقال: "ما شممت عنبرًا قط ولا مسكًا ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ، ولا مسست قط ديباجًا ولا حريرًا ألين مسًّا من كف رسول الله ﷺ ، كان أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ" (رواه مسلم).

ترى، هل هناك في الجمال والتجمل أرقى من ذلك الذي كان، كأن عرقه اللؤلؤ"؟! هذا هو رسول الله، جسّد في عشقه للجمال وارتقائه على دربه، منهجَ الإسلام في التربية الجمالية. فكانت حياته -في خاصة نفسه-

التجسد لسنته التي علمنا إياها عندما قال: "إن الله جميل يحب الجمال".

الاستمتاع بجماليات الحياة

أما "سيرته الجمالية" في أهله فإنها هي الأخرى، نموذج للجمال الراقي وللرقي الجمالي، تدهشنا اليوم بعد أكثر من أربعة عشر قرنًا. فما بالنا إذا تصورناها في ذلك التاريخ؟!

وهذا هو النبي الذي يأتيه الوحي، ويبلّغ رسالة ربه، ويقود الدولة، ويرعى الأمة، ويكاتب الملوك، ويقاتل صناديد الشرك، وينهض بتغيير وجه الحياة على الأرض.. إنه ﷺ يمارس "السباق" مع زوجته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأين؟ ليس سرًّا وراء الجدران والأبواب المغلقة، وإنما في الطريق وهم مسافرون.

تروي عائشة رضي الله عنها حديث هذا الخُلق الراقي في الاستمتاع بجمال الحياة، وفي الأخذ بحظه من طيباتها فتقول: خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية[1] لم أحمل اللحم ولم أبدن، فقال للناس: "تقدموا"، فتقدموا، ثم قال لي: "تعالي حتى أسابقك"، فسابقتُه فسبقتُه.. فسكت عني حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت، خرجت معه في بعض أسفاره، فقال للناس: "تقدموا"، فتقدموا، ثم قال: "تعالي حتى أسابقك"، فسابقتُه، فسبقني.. فجعل يضحك وهو يقول: "هذه بتلك" (رواه الإمام أحمد).

إننا نسوق هذا الطرف من سيرة رسول الله ﷺ لا لنعجب أو نستدر العجب، وإنما لنقول: إن هذا هو المنهج الطبيعي والوحيد للإسلام في علاقة المسلم بجماليات الحياة، منهج ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ

---

[1] أي صغيرة شابة.

وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إليكَ﴾(القصص:٧٧). ولقد أحسن الله إلينا بآيات الجمال التي زين بها كل ما في الوجود.

والإحسان المقابل هو أن نحسن الاستقبال لهذه النعم الإلهية، ونرتقي بقنوات وأدوات وحواس استشعارها والاستمتاع بها شكرًا له على ما أنعم، وإقامة للتوازن والوسيطة الإسلامية التي وإن أنكرت الترف والإسراف في الملذات، فإنها تنكر الرهبانية ونسك الأعاجم وإدارة الظهر لطيبات الحياة. إنه المنهج الذي يعلّمنا أن كل عمل يرتقي بإنسانية الإنسان حتى ما كان منه "لهوا" يروّح عن النفس، و"لذة" حلالا، فهو "عبادة" لله، يستمتع بها الإنسان في دنياه، وتكتب له بها الحسنات التي يوفاها في أخراه. يقول رسول الله ﷺ: "عجبت من قضاء الله ﷻ للمؤمن، إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر، المؤمن يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته" (رواه الإمام أحمد).

إنه منهج العشق الحلال للطيب من آيات الجمال، ينفي -بل يستنكر- ذلك التجهم الذي يفتعل الخصام بين المسلمين وبين طيبات وجماليات هذه الحياة. فالمسلم لن يستطيع أداء فريضة الشكر لله على نعمة الجمال، إلا إذا عرف واستمتع بأنعم الله ﷻ في هذا الجمال.